وعانى خلالها من جور وقسوة ورعب الانظمة العربية ، فقرر العودة الى نابلس ليمارس العمل الثوري ٠

ولا بد من الاشادة هنا بمدخل الرواية الذي تقدم به الكاتبة في الفصول الاولى تجربة التفتيش على الجسر ٠٠ التحقيق ، الرعب الخفي ، المزاوجة ما بين هموم اسامة الكرمي وهموم الاخرين، والتعاطف الحاد مع تلك الفتاة التي وجدوا شيفرة سرية تحت باروكة شعرها ٠

يعود اسامة الكرمي الى نابلس فيجد نفسه غريبا عنها ٠ (الناس لا تبدو عليهم شقاوة العيش ، يلبسون على الموضة ، يمشون بخطوات اسرع ، ويشترون بدون مساومة ، كثرت النقود٠٠ كثرت الاعمال ٠ استطالت السوالف وقصرت التنانير ٠ وامتلأت ارداف الخادمات ٠ الاحتلال ما زال احتلالا ، والكرامة المسحوقة ما زالت ملغاة ، لكن شيئا ما قد تغير ٠ فالخادمات ما عدن خادمات ، والسلم الطبقي مال) ٠

وعندما يلتقي اسامة الكرمي بأمه ويبكي على صدرها، يقول :

بكيت على الناس يا امي ٠٠ بكيت على البلد ٠

بعد ذلك نتعرف على اسرة الكرمي ٠٠ نتعرف على عمه الوجيه الذي تضررت مصالحه وخسر مزرعته الكبيرة بعد ان هجرها العمال وفضلوا العمل في المصانع الاسرائيلية ، وظل يحتفظ بتلك العنجهية التي يتمتع بها كبار الملاك والاثرياء في الوقت الذي تتفسخ فيه طبقتهم ويزداد عجزهم امام معضلات الاحتلال ٠

ونتعرف ايضا على ابن عمه عادل ، ذلك الشاب البرجماتي الذي لا يبحث الا عن مصالحه الشخصية، ولا يلتقي بقضية الوطن الا عن طريق الصدفة ٠

ثم ابنة عمه نوار التي يحلم بان تكون زوجة له ، والتي تمثل حالة انتقالية ضعيفة ، وتظل لفترة طويلة اسيرة لقوة الاشياء في محيطها البرجوازي المتداعي ٠

ومن خلال عادل الكرمي ، وشبكة علاقاته ، تقدم الكاتبة عددا اخر من الشخصيات اغلبها من العمال العرب الذين يعملون في المصانع الاسرائيلية ومن ابرز هؤلاء (ابو صابر) ابن البلد الطيب الذي تأكل الالة يده اثناء عمله في المصنع وتجعل منه عاطلا ، ولا يستطيع الحصول على تعويض لان الضمان الاجتماعي لا يشمل العمال العرب ، فيقعد في البيت عالة على الاصدقاء والجيران ، وعلى ما تحصل عليه زوجته (ام صابر) لقاء الخدمة في بيوت الاخرين ٠

تبقى اخيرا شخصية باسم الكرمي الفتي الذي ينتمي الى الجيل الجديد والذي ينسلخ عن طبقته في وقت مبكر ويلتحق بالخلايا السرية للمقاومة ، وشخصية (لينة) الطالبة الثورية التي تتعرض للاعتقال بسبب نشاطها الثوري ٠

ولعل الكاتبة رمزت في هاتين الشخصيتين الى الجيل الجديد الذي يشبه اشجار الصبار في صلابته وقوة احتماله وتنوع اساليب واشكال نضالة وتعدد اسلحته ٠

ان شخصية باسم بشكل خاص مرسومة بدقة ، وهي شخصية غنية،وتكاد تكون الشخصية الوحيدة التي يحس القارىء بحيويتها ، وهي متطورة اكثر من الشخصيات الاخرى التي يظهر بوضوح قلق حياتها الداخلية ، وضعف نموها ٠

لا اريد ان اخوض كثيرا فيالتفاصيل حول الشخصيات والمضمون والشكل